للزيد زوروا : مدونة اللهجات العربية
https://ar-dialects.blogspot.com

مجلة القافلة (غير محكمة)
شركة أرامكو
السعودية
مجلد ٤٠, عدد ٤
نوفمبر ١٩٩١

العربية الفصحى أو اللهجات العامية

بقلم: الاستاذ مجيد الماشطة - العراق

جرت العادة في ميدان تعليم العربية على احتدام الجدل بين أنصار الفصحى وأنصار العامية الى حد التشكيك أساسا باخلاص الفريق الآخر للغة العربية ، فيتهم أنصار الفصحى عموما بالتزمت وضيق الأفق وبعدم مواكبة التمدن ، في حين يتهم أنصار العامية بالعمل على تفتيت العروبة تحت ستار العلمية والتحديث . وتهدف المقالة الحالية الى تسليط الأضواء الكافية على هذا الموضوع الخطير .

ان دعاة استخدام اللهجات العامية يطرحون آراء ومبررات عديدة . فهذا يوسف السباعي يدعو الى اجراء تغييرات جذرية على اللغة العربية لأجل تمكينها من مسايرة العصر الحديث ، ويقول :

« يجب ان نتحلل من هذه القيود السخيفة . لماذا كل هذا التعب ؟ الأن العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه ونصبوا تلك ؟ ليكن .. لنحافظ على تراثهم (تراثهم هم وليس تراثنا نحن) كما هو .. على ان نحلل لغتنا من أثقالها وقيودها . ونقولها بأبسط الطرق . لنسكن آخر كل كلمة .. ولنبطل التنوين . ولنقل الجمع بالياء فقط .. ولنحرم أدوات الجزم والنصب من سلطاتها . لنتحلل من كل هذا ، ولنصرف الممنوع من الصرف ... » (١).

ويطرح د. محمد كامل حسن اقتراحه المعروف : نبدأ بتعليم العامية المنقحة ثم ندرس الفصحى المخففة (٢).

ان نقطة الضعف الأولى في اقتراح السباعي ، اضافة الى إساءته الى الهوية العربية ، انه يفتقر الى أبسط مقومات التبرير العلمي والتفكير المنطقي . ويقف د. أنيس فريحة مع يوسف السباعي في تذمره من الفصحى ، فهو يرى ان نستبدل بها « لهجة عربية محكية موحدة » :

« لهذه اللهجة العربية الجديدة المشتركة بين الطبقات العربية المتعلمة والتي خلقتها ظروف الحياة العربية الجديدة ، خصائص تجعلها مغايرة للفصحى . وفي الوقت ذاته ، تجعلها لغة مرنة سلسة طيعة تصلح ان تكون اللغة العربية الأدبية » . ويستطرد د. فريحة فيقول :

« لكي ينجح مشروع لهجة عربية محكية مشتركة يجب ان تتوفر الشروط الأساسية التالية :

أ ـ أن يكون لها أدب .

ب ـ أن تكتب بالحرف اللاتيني .

جـ ـ أن تضبط أحكامها الصرفية والنحوية والصوتية .

د ـ أن يقبل بها العـرب » (٣).

هذا الاتجاه اذن لا يقف عند حد استبدال العامية بالفصحى ، انه يسعى ايضا الى اعتماد الحرف اللاتيني . ومعلوم ان الحرف اللاتيني قد حل محل الحرف العربي في التركية والسواحيلية والهوسا والأندونيسية والأزبكية والمالطية والماليزية والصومالية ....

١ ـ د. احمد مختار عمر ـ من قضايا اللغة والنحو / القاهرة : عالم الكتب ١٩٧٤ م ص ١٢٣ .

٢ ـ د. محمد كامل حسن ـ اللغة العربية المعاصرة / القاهرة : دار المعارف ١٩٧٦ م ص ٨٣ .

٣ ـ د. أنيس فرحة ـ نحو عربية ميسرة / بيروت : دار الثقافة ١٩٥٥ م ص ١٨٣ـ١٨٤ .

ويمثل محمد كامل حسن الاتجاه الثاني : فهو يدعو الى التوفيق بين الفصحى والعامية بحجة انقاذ العربية الفصحى من محنتها : « ولا يجوز لنا ان ننكر ان العربية الفصحى في أزمة ، وان المحاولات التي بذلت منذ نحو قرن لحل هذه الأزمة لم تصادف الا نجاحا ضئيلا . »

ويفسر حسن هذه الازمة بالطبيعة الاعرابية للغة العربية :

« فاللغة العربية لغة معربة اعرابا دقيقا ، ثم هي اشتقاقية . وكلا الأمرين يحول بينها وبين ان تكون لغة العلوم الحديثة كلها ، وان كان ذلك مستطاعا بعد جهد عنيف ، ولن تكون فيه فائدة لا للغة ولا للعلوم » (١).

لهذا يقترح د. حسن البدء بتعليم العامية المنقحة ثم التدرج في الفصحى المخففة التي يكون للعدد فيها صفة دائمة والتي تستخدم في العلوم الطبيعية والتاريخ والقانون وعلوم الاجتماع . اما العربية العالية فتقتصر على المجالات الأدبية لأنها « لا تصلح لدراسة الرياضيات العليا مثلا ، والمشتغلون بهذه العلوم يستحيل عليهم ان يفكروا فيها تفكيرا حرا عميقا اذا اتجهت عنايتهم الى تمييز العدد وجنسه واعرابه » (٢).

وفي تعليقه على هذا المقترح يقول محمد صلاح الدين شريف : « وانما الذي لا يقبل في كتابه دعوته الى استعمال هذه المستويات في التعليم بالتدرج استعمالا يجعلها تتداخل ويجعل اللغة بذلك لا تخضع الى نظام واحد يضمن سلامة الابلاغ بها . ومالا تقبله الألسنية ايضا ان تكون هذه المستويات مصنوعة صنعا لا واقعا موصوفا » (٣).

والواقع ان الخطأ الرئيس الذي يرتكبه أنصار تعليم العامية انهم يكافئون اللهجات العامية بالفصحى ، في حين ان الفصحى هي المحور او الكوكب ، وما اللهجات الا توابع تدور حول هذا الكوكب وتتباين فيما بينها في مدى ابتعادها عنه . اما ادعاء البعض ان جميع اللهجات العامية السائدة حاليا في الوطن العربي تنحدر اصلا من عامية أم ، وان هذه العامية الأم تقف ندا للعربية الفصحى فهي نظرية تحتاج الى التوثيق والاثبات . يقول تشاركز فرغسون :

« طالما افترض اللغويون ان اللهجات العربية المعاصرة تنحدر عموما من العربية الفصحى او من مجموعة شبيهة جدا بها . بعبارة اخرى ، وباستثناء الاقتباسات والتجديدات تتضمن هذه الفرضية ان المادة اللغوية للهجات المعاصرة استمرار مباشر لمرحلة مبكرة للعربية ومطابقة تماما للعربية الفصحى التي حدد النحاة سماتها ، ما عدا بعض الأمثلة الفردية التي تحتفظ بها بعض هذه اللهجات بصيغ قديمة سبقت تحديد النحاة للعربية الفصحى . وستبقى هذه الفرضية قائمة كأفضل نظرية لتفسير نشوء اللهجات مالم يظهر ما يغايرها . وتهدف هذه الدراسة الى اضافة تعديل مهم على هذه الفرضية وهو ان معظم اللهجات الحديثة تنحدر من لغة مبكرة خلال صيغة من العربية ليست متطابقة مع اي من اللهجات القديمة . وتختلف هذه الصيغة في أمور كثيرة عن العربية الفصحى غير انها استخدمت الى جانب الفصحى خلال القرون الأولى للعهد الاسلامي » (٤).

إن الظاهرة اللهجية ظاهرة تخص كل اللغات دون استثناء . فاللهجات قائمة ومتنوعة كثيرا في اللغات الاوروبية مثلا لكننا لم نسمع يوما بمعهد يدرس الانجليزية العامية لغير الناطقين بها او يبدأ بتدريس الانجليزية العامية ثم ينتقل الى تدريس الانجليزية القياسية . وفي تعليم الفرنسية لغير الناطقين بها في اقليم كيوبك بكندا يتعلم الدارس الفرنسية الفصحى (المألوفة) مهما كانت دوافعه من تعلم هذه اللغة . اما تفسير ذلك بدعوى الاختلافات بين الانجليزية القياسية والانجليزية العامية اختلافات طفيفة مقارنة بالوضع في اللغة العربية فتفسير خاطىء لأن ما يهمنا المبدأ وليس الدرجة .

---

١ ـ د. محمد كامل حسن ـ اللغة العربية المعاصرة / القاهرة : دار المعارف ١٩٧٦ ص ٧١ـ٩٥ .

٢ ـ المصدر السابق ص ٨ .

٣ ـ محمد صلاح الدين شريف ـ أثر الألسنية في تجديد النظر اللغوي / تونس : وقائع ندوة اللسانيات واللغة العربية ١٩٨١ م ص ٤٦ .

٤ ـ Charles Ferguson, the Arabic Koine in: Salman Al-Aani, Readings in Arabic Linguistics, Indiana University Club, 1978.

اما كيف ظهرت العربية الفصحى نفسها فمسألة فيها نظر . اذ تذهب النظرية اللسانية المعاصرة الى سيادة احدى اللهجات لاعتبارات اجتماعية معينة و بالتالي انتقائها لهجة فصحى لتلك اللغة . يقول د . قاسم :

« من الواضح ان ما تواضع عليه الناس قديما على انه اللغة الفصحى وعليه نزل القرآن كان في جملته يرتكز على لغة أهل الحجاز ولغة قريش بالذات . » (١). ويتفق مع هذا الرأي المرحوم د. صبحي الصالح :

« لقد أتيح للغة قريش ان تتبوأ المكانة الأولى بين اللهجات العربية الشمالية فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الاطلاق وكان على اللغويين القدامى ان يعنوا بها عناية خاصة ويفضلوا نطقها ورسمها واعرابها ووضعها واشتقاقها . فلم تحظ اللهجات العربية الباقية منهم الا بالقليل من أبحاثهم . » (٢).

أما د. ابراهيم السامرائي فيذهب الى ان العربية الفصحى مزيج من عدة أبحاث : « ليس من العلم ان نقول ان لغة القرآن والفصحى هي لغة قريش او لغة الحجاز والصحيح ان نقول انه اجتمعت في هذه العربية مواد كثيرة ترجع لجماعات عدة في بيئات عدة » (٣).

ليس المهم ان أقف حكما بين الرأيين الأهم من هذا ان الظاهرة اللهجية او اللحن ــ كما كانت تسمى سابقا ــ لم تولد الجزع ولا القنوط في نفوس حماة العربية . لقد واجهوا هذه الظاهرة بعزم وايجابية لغرض تضييقها الى اقل حد مستطاع . ففي عهد الامام علي كرم الله وجهه تم تنقيط المصحف ووضع ابواب النحو . وفي العهد الأموي تم « جمع اللغة من أفواه الأعراب الموثوق بهم واستقراء الشواهد ووضع القواعد ثم استنكار اللحن . » (٤).

وقام النحاة في العهد العباسي بجمع « ما شاع على ألسنة الناس من كلام مختلف عن سنن الكلام الفصيح وخشي ان يمتد خطره الى اللغة الأدبية المشتركة كما فعل ذلك الكسائي في القرن الثاني وقام به كل من الفراء والأصمعي والمازني والسجستاني وابن قتيبة في القرن الثالث . كما عنيت كتب القرن الثالث بتنقية اللغة والتوجيه الى فصيح الكلام ومقاومة اللهجات العامية . » (٥).

وفي الأندلس كان « لحن العامة » لأبي بكر الزبيدي اول كتاب في لحن العامية تلاه « تثقيف اللسان وتنقيح الجنان » الذي وصف فيه ابن مكي لهجات الخطاب في صقلية .

وجرت هذه المحاولات طيلة العصور المختلفة بروح ايجابية ومعنويات عالية لم تسمح لروح اليأس والتشكيك بمراودة نفوس القائمين على العربية ولم تفسح مجالا للالتفاف على الفصحى عن قصد او غير قصد بحجة واقعية اللهجات العامية .

واليوم ونحن نواجه كل هذه الحملات المسعورة ضد العربية الفصحى ، فان الواجب القومي يحتم علينا ان نقف موقفا مبدئيا مع الفصحى وبلا تردد . واذا كان المستشرقون قد أوصوا مشكورين في اجتماعهم مؤخرا باليونان بما نصه :

« ان اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي تصلح للبلاد الاسلامية والعربية للتخاطب والكتابة والتأليف ، وان من واجب الحكومات في هذه البلاد ان تعني بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضي على اللهجات العامية التي لا تصلح كلغة اساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق » (٦).

نحن نختلف معهم في مسألة واحدة فقط ، هي ان اللهجات العامية حقيقة واقعة يستحيل القضاء عليها حاضرا أو مستقبلا لأنها من صلب اللغة ولأن وجودها ليس عيبا على اللغة ، انما العيب ان لا نرسم الخط الفاصل بين الفصحى والعامية رسما صحيحا □

---

١ ــ د. عون الشريف قاسم ــ اللغة العربية بين الفصيحة والعامية / الخرطوم : المجلة العربية للدراسات اللغوية ــ العدد الأول ١٩٨٣ م ــ ص ٣٣ .

٢ ــ د. صبحي الصالح ــ دراسات في فقه اللغة / بيروت : دار العلم للملايين ١٩٧٨ م ص ٧٢ .

٣ ــ د. ابراهيم السامرائي ــ التطور اللغوي التاريخي / القاهرة : دار الرائد ١٩٦٦ م ص ١١٧ .

٤ ــ عبدالعزيز مطر ــ لحن العامة / القاهرة : الدار القومية للطباعة ١٩٦٦ م ص ٧ .

٥ ــ المصدر السابق ــ ص ٦ .

٦ ــ د. احمد مختار عمر ــ من قضايا اللغة والنحو / القاهرة : عالم الكتب ١٩٧٤ م ص ١٣ .